الطب: المهنة التي لا تعترف بالحدود!

تلخيص العرض الذي أعده البروفيسور عبد الهادي التازي
عضو أكاديمية المملكة المغربية بعنوان:
(الطب المهنة التي لا تعترف بالحدود)
أعده لمؤتمر الرعاية الصحية في شمال إفريقيا، المؤتمر يقام تحت رعاية فخامة رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقة ويستمر على مدى يومين 2 3 أكتوبر 2012 في مدينة الجزائر العاصمة.

مادتان اثنتان كان موقف الإسلام منهما موقفا في غاية الوضوح عند ظهوره في السنة الأولى للهجرة 622 623، لم يتردد في الكشف عنهما مؤمنا بأن وجودهما أمر ضروري لاستمرار الإنسان وبقائه حيا متجددا، مواكبا للركب...

المادة الأولى: مادة اللغة، كوسيلة التواصل بين بني الإنسان، فبالرغم من أن القرآن نزل بلسان عربي، وبالرغم من الفضاء الذي كان يعيش فيه المجتمع الإسلامي كان فضاء يتكلم جميعه باللغة العربية... وبالرغم من أن الذين اعتنقوا الإسلام كانوا يؤدون شعائر عبادتهم بلغة القرآن التي كانت تتماهى مع مجتمعهم المتأثر بإنشاد الشعر بالعربية، وبنثر خطاباته بالعربية أيضا، بالرغم من كل ذلك ظل الإسلام يشجع اللغات الأخرى ولم يصدر عنه، أي الإسلام، أي حظر إطلاقا على لغة الجوار، بل إنه كان يحث على تعلم لسان الآخرين حتى يضمن التواصل بين الثقافات والحضارات، ولم لا نقول الديانات؟!

المادة الثانية: مادة الطب كان يرى فيها المادة المشاعة بين بني الإنسان: لا يجوز احتكارها ولا استغلالها لشيء غير مصلحة الإنسان الذي يمثل صنع الله على ظهر هذه البسيطة...
لقد حدثت نازلة طبية في الأيام الأولى لظهور الإسلام، نازلة يمكن أن نسمع بها حتى اليوم عند الأطباء...
النازلة تتلخص في أن بعض صحابة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم تساءلوا: هل إن هناك ضررا صحيا يتعرض له الرضيع في حالة ما إذا وصل الزوج زوجته وحملت... ما نسميه في اللغة "الغيل" أي حمل المرأة وهي مرضع، (غالت المرأة ولدها أرضعته وهي حامل فهي غائلة)...
هل يجوز للرجل أن "يمس المرأة" ما دام بين يديها رضيع: سؤال طبي كما نرى، وكان للسؤال ما يبرره لا سيما وأن بعض الأطباء في ذلك الزمان كان يرى أن لبن المرأة الحامل يصبح داء وليس غذاء! لا سيما أيضا ونحن نعرف أن بداية العناية بالطفل تبدأ من يوم شعور الأم بأنها حامل!

لم يتردد النبي صلى الله عليه وسلم في استمزاج رأي أطباء الروم حول تجربتهم، كما ولم يتردد في السؤال عن تجربة الفرس...
لم تكن المسافة الشاسعة التي تفصل بين الجزيرة العربية وبين الدولتين، ولم يكن الاختلاف في العقيدة كذلك، ولا الاختلاف في اللغة بمانع للإسلام عن أن يتعرف على رأي الآخرين...
وهكذا تم الاتصال وعرف نبي الإسلام أن ليس هناك عند الروم والفرس ما قد يهدد صحة الرضيع...
هنا نجد النبي صلى الله عليه وسلم يعتمد على ما صدر من تجربة عن طب أهل الروم والفرس ويشرع للمسلمين أن لا خطر في أن ترضع المرأة وتحمل في آن واحد...
يمكننا جميعا أن نرجع لهذا الحديث الذي روته السيدة عائشة عن السيدة جدامة: وهو في كتاب "الموطأ" للإمام مالك في فصل الرضاع...
هذه النازلة في بداية الإسلام تفسر لنا جيدا القولة الجريئة للعلامة الكبير ابن خلدون (ت 808 1406) الذي قال في مقدمة تاريخه المعروف: إن الطب ليس من الوحي في شيء... وإنما بعث النبي ليعلمنا الشرائع، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من الأشياء العادية. ولكي يوضح ابن خلدون هذه الفكرة أكثر قال: وقد وقع للنبي صلى الله عليه وسلم في شأن تلقيح النخل ما وقع فقال: **"أنتم أعلم بأمر دنياكم"!!**
إلى جانب هذه الآثار النبوية التي نقرأها في مصادر تاريخنا والتي تعرفها الأنسيكلوبيدات بكل لسان... نذكر ظاهرة أخرى في منتهى الأهمية، تلك أن المؤرخين العرب في تآليفهم العلمية كانوا يعترفون بما للفكر اليوناني من سبق في الميدان الطبي، وهكذا فإنه لم يكن عندهم مركب نقص أو شعور بالاستعلاء، وهم يذكرون أفضال سابقيهم من علماء اليونان: إبوقراط (HIPPOCRATE) (ت370 قبل الميلاد) وجالينوس (GALIEN) (ت210 بعد الميلاد) الذي قال عنه ابن خلدون ما قال، وغير هذين من أمثال ابن سينا (AVICENNE) 428=1037 كانوا يذكرون الكل بأسمائهم سواء كانت الأسماء يونانية أو فارسية...
ولا بد أن نذكر في صدر هؤلاء العلماء الطبيب الجراح أبا القاسم الزهراوي المعروف في عالم الغرب تحت اسم (ABULCASIS) 400=1009 الذي كان من كبار الجراحين وهو صاحب "عمل اليد" وقد استنبط عددا من الآلات الجراحية التي استفاد منها الأطباء في ترجماتها اللاتينية على نحو ما رجع هو إلى عدد من المؤلفات اليونانية التي يذكر أصحابها أمثال جالينوس...

وفي جامعة القرويين سمعنا عن مقدمة علم المنطق إساغوجي (ISAGOGE) التي ألفها بورفيري الفراتي (PORHYRY DETYGRE) بهذا الاسم ذكروها لنا بمجالس العلم في قلب مسجد القرويين من فاس...

وفي الأرجوزة الطبية لابن طفيل (ABU BACER) (581=1185 1186) نجد أسماء ومصطلحات باللغة الإغريقية، مثلا عندما كان يتحدث عن مرض السكري قال عنه:

تعرف ذي العلة باليوناني * **(ديا بيطا)** في منطق اللسان
وهي التي يشرب فيها الماء * وليس للجوف به بقاء!

هذان البيتان اقتبسهما من الأرجوزة الطبية التي تختص بها خزانة القرويين سالفة الذكر والتي تنيف على ثلاثة آلاف بيت!!

وقد حفظ علماء الغرب أعلاما عربية أخرى مثل ابن زهر الحفيد 595=1199، الذي يحمل عندهم اسم VENZUAR والحديث عن هذا الحفيد يذكرنا في الأسرة بكاملها التي توالى أبناؤها على مراتب الطب... وكان من بين الأسرة طبيبات لامعات.

ومن هذا القبيل نلاحظ ظاهرة غريبة في "المعاجم" التي اهتمت بالترجمة للأطباء: تأليف البيبليوغرافيا في كتبنا التراثية مما يعرف اليوم (WHO'S WHO)
عندما نبحث في تاريخ الأطباء عند الوزير جمال الدن القفطي المتوفى سنة 646=1248 فسنجده في كتابه المسمى (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) يقدم لنا طائفة من الأسماء مرتبة على الحروف الهجائية من الألف إلى الياء... لم يرتبها على أساس ملة من الملل، ولا أساس انتماء لهذه الجهة أو تلك، ولم يفرق في هذه الحروف الهجائية بين طبيب يهودي ,ومسيحي أو مسلم!...
ومثل ما صنعه القفطي في معجمه عن الأطباء، صنعه شمس الدين الشهرزوري المتوفى أواخر القرن السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي في كتابه (تاريخ الحكماء)
وهكذا سنقرأ ترجمة أفلاطون (PLATON) في حرف الألف، إلى جانب إبراهيم بن حبيب وإبوقراط، وسنقرأ في حرف الجيم جالينوس (GALIEN) وجعفر المكي ...
وسنقرأ عن الحسن بن الهيثم المهندس البصري إلى جانب جبيش النصراني، وحسون الرهاوي والحكم بن أبي الحكم، وإلى جانب سهل الاسرائيلي، نجد سابور صاحب بيمارستان، والسموأل يهودا المغربي، ثم صاعد النصراني وصالح الهندي، وعبد الله الصيدلاني، وعلى بن العباس المجوسي، وعيسى بن أبي زرعة النصراني، والفضل المنجم، والفضل الأسطرلابي وفيتاكور PYTHAGORE اليوناني، وفاقليس الآمدي، وموسى بن ميمون اليهودي الأندلسي، ومسلمة المجريطي...

ومن الطريف أن نجد ثلاثة أطباء مشهورين لامعين، جميعهم يحمل اسم (هبة الله): أولا هبة الله بن صاعد المعروف بابن التلميذ وهو نصراني من أعظم رجال الطب الذين بلغوا المائة عام!... هذا إلى طبيب آخر يهودي يحمل اسم هبة الله بن مالكا وهو من يهود بغداد، هذا إلى هبة الله ثالث، مسلم هو هبة الله بن الحسن الاصفهاني...

ولا بد أن نذكر هنا رحلة عالمية نعتها رجال الاستشراق بأنها أعظم رحلة في تاريخ البشرية جمعاء، وهي رحلة ابن بطوطة الذي نعته معاصروه بأنه طبيب، هذا الرحالة الكبير كان يتحدث في جولاته الواسعة عن الأطباء كأطباء وليس بانتمائهم العرفي أو الديني!

وإذا ما رجعنا إلى الضفة الأخرى التي يسكنها غير المسلمين لنبحث عمن فيها من العلماء فإننا سنجد أن الأطباء في تلك الجهات الأخرى يعتبرون أطباء العالم العربي جسورا قوية تربط بين العالم العربي والعالم الغربي، هم يذكرون رجالاتنا على أنهم عظام كبار، يذكرونهم بإجلال واحترام... ولنذكر هنا العالم الضخم: ابن رشد (594=1198) هو الذي يعرف في العالم المسيحي باسم (AVERRUES).

أقترح عليكم إذا ما وصلتم إلى روما أن تزوروا (حاضرة الفاتيكان) حيث يوجد هناك متحف من أعظم متاحف الدنيا، علينا أن نقطع بضعة كيلوميترات لنتتبع غرف المتحف وزواياه وجنباته.
من بين تلك الحجرات واحدة تحمل في جدرانها لوحة فنية رائعة كبيرة من عمل الفنان الإيطالي الشهير رفائيل يقف عندها مئات السياح من مختلف جهات العالم من الصين واليابان إلى القارة الأمريكية وطبعا البلاد الأوروبية، سنقف على هذه اللوحة تحمل عنوان (مدرسة أثينا) (ECOLE D'ATHENES)
كان على الرسام رفائيل الذي عهد إليه بتأثيث المتحف أن يقوم بوضع اللوحة في بداية القرن السادس عشر، ورأى أنه من الضروري أن يجعل ضمن وجوه (مدرسة أثينا) وجه علامتنا (ابن رشد) الذي كان له حضور فاعل في الفكر الأوروبي وفي الحضارة الغربية.

لقد كنت أشعر بالسعادة تغمرني وأنا أسمع الأدلاء الذين كانوا يقدمون اللوحة للزائرين بكل اللغات... أسمع عن اسم ابن رشد، وأراه أمامي بعمامته وشنباته!!
لقد اقتنيت من تلك الرسوم ما قدرت عليه لأهديه لأصدقائي وزملائي...

وإن أحدا من صيادلة الدنيا لا يجهل اسم ابن البيطار 645=1248 إمام النباتيين وعلماء الأعشاب، وليد مالقة ودفين دمشق646=1248، هذا العلامة المغربي الذي كان مثار إعجاب الغربيين الذين لم يتوانوا في ترجمة موسوعته النباتية إلى اللغات الأخرى في مجلدات، وكان الجدير بالذكر أن ابن البيطار كان يعتز بذكر مصادره الأجنبية لا يشعر كما أسلفنا بأية عقدة ولا مركب نقص!
يشعر المرء بمؤاخاة حقيقية بين الأطباء والصيادلة حتى لكأنه أمام إمبراطورية تعيش لوحدها في جو من التعاون والتشارك والتكامل.

لا أنسى هنا ذكر أحد كبار العلماء المغاربيين، يحمل اسم الآبلي (ت757=1356) الذي ما يزال بحاجة إلى دراسة معمقة... لم يترك تأليفا ولا كتابا ولكنه ترك تلامذة عباقرة في حجم ابن خلدون الذي يعترف في مقدمته بأنه لو لم يكن الآبلي لما كان ابن خلدون!!
كان الآبلي لا يعرف غير وطن مهنته ينتقل عبر المغارب الثلاث بين تونس وبجاية وفاس مخلفا وراءه "هيمالايا" من الأفكار والآراء... الآبلي الذي نعته المؤرخون بنعت "التعاليمي" الذي يعني "التجريبي" والرياضي والطبي والصيدلي...
لا بد أن نرجع إلى تجربته الشخصية حول استعمال إحدى المواد الصيدلية التي نستعملها إلى اليوم: "الكافور"
تجربته الشخصية مع هذه المادة كانت تحزننا وتسلينا في نفس الوقت!! بل وكانت في الوقت ذاته تضع علامات استفهام عما يقصده الرجل من كلامه حول استعمال الدواء، وهو الطبيب الوحيد الذي ذكر ما قد يتعرض له المريض من آفات وعاهات قد تنشأ عما يتناول المريض من أدوية مما يعرف باسم ياطروجين (IATROGEN): المرض العلاجي المنشأ كما يسمونه بمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

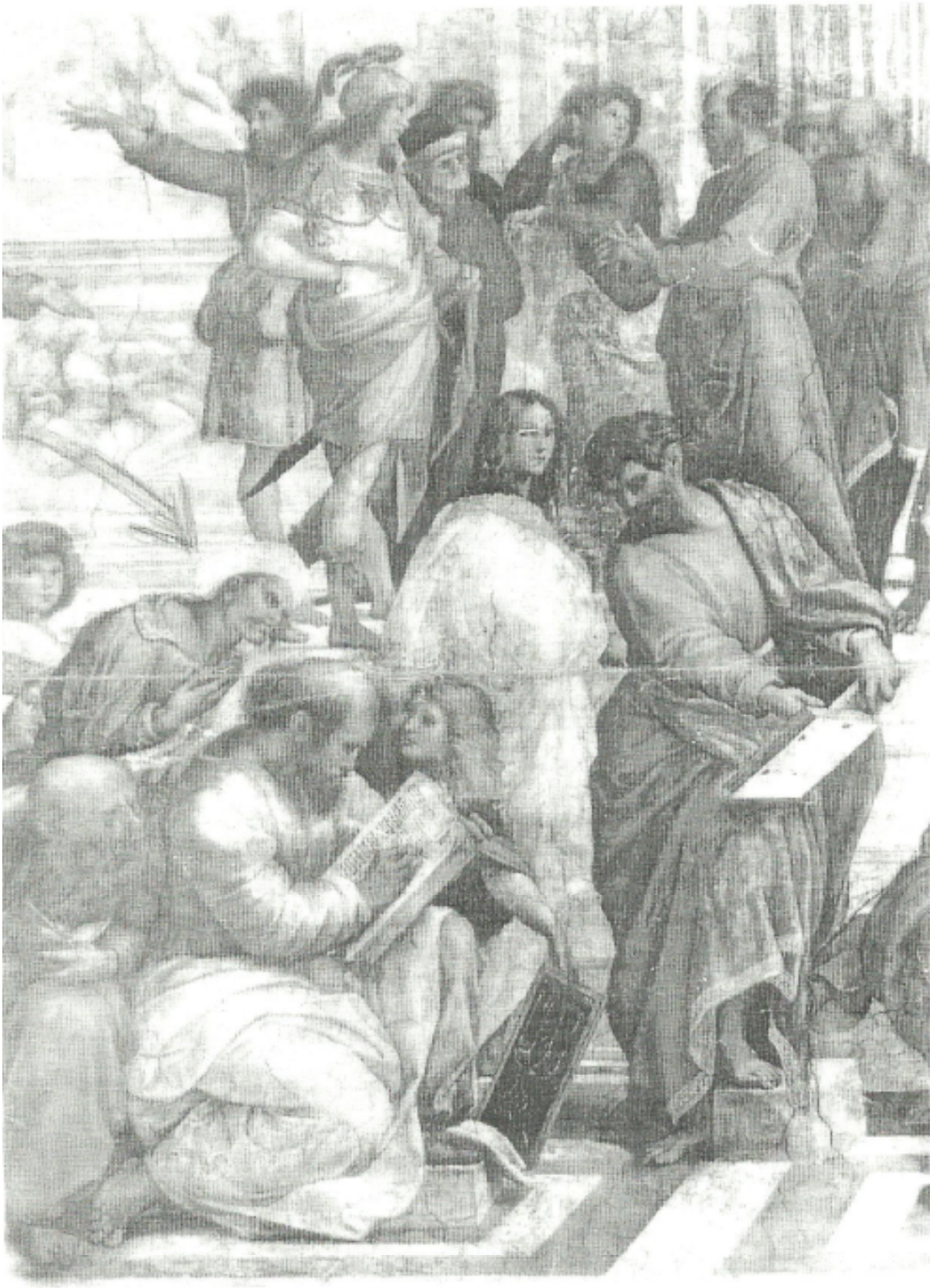

يظهر ابن رشد في يسار الصورة أسفلها بعمامته وشّنباته ينظر
إلى فيثاكورس وهو غارق في أبحاثه.

وهل ننسى المعافري السبتي محمد بن مروان (ت817=1414 1415) الذي كان يستحضر نصوص العلماء المتقدمين من أمثال ديوسقوريدس وإبوقراط وجالينوس على نحو ما يستحضر الرازي والزهراوي وابن سينا وابن طفيل وسوى هؤلاء...

وقد كان من أشرف وأنبل الأدوار التي يقوم بها الطب أنه كان يسهم، أحيانا، في تلطيف الأجواء السياسية والدبلوماسية بين دولة ودولة... حيث تتحرك سفارة من بيزانطة مثلا إلى قرطبة تحمل عددا من التحف والهدايا يكون من بينها نسخة من مخطوطة ديوسقوريدس باللغة اليونانية حيث عمل قادة قرطبة على استقدام ترجمان اللغة اليونانية للمساعدة على تعريب المخطوط الذي وقفت في مدينة مشهد بإيران على نسخة مخطوطة منه ملونة...
كانت هذه المبادرة البيزانطية وراء إرسال سفارة من الأندلس إلى الطرف الآخر لدراسة القضايا ذات المصالح المشتركة كما يقولون بلغة اليوم!

وقد قرأنا عن الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف الذي كان إلى جانب منصبه السياسي الهام، إلى جانب ذلك كان عالما كبيرا وفيلسوفا عظيما، مهتما بما قاله علماء اليونان عن الفضاء...
هذا الخليفة يوسف المنصور استقبل في قصره بفاس عام 576=1180 سفارة من لدن إمبراطور الرومان مانييل كومنين الأول (M. COMNENE I) حيث تحدثت المصادر اليونانية عن سهرة أكاديمية حول تأليف آرسطو... وحيث قدمت السفارة مخطوطا إغريقيا نادرا جدا يحتوي على محاولة ألفها آرسطو بعنوان: (في الروح...) لماذا باليونانية لأن الترجمانة السرانية التي كان الخليفة الموحدي يتوفر عليها لم تكن دقيقة على حد ما ورد في التقرير الذي نقله إلينا الرئيس السابق لجمهورية اليونان تساطسوس (TSATSOS)...

أريد القول مرة أخرى إن **العلم لا يعترف بالحدود،** وإنه إلى جانب اعتزازه بهذا المبدأ النبيل كنا نروم إلى تصفية العلاقات الدولية والإنسانية مما قد يشوبها أو يشوش عليها!

أيها السيدات والسادة! كم كنت سعيدا أن أستجيب لدعوتكم الكريمة، وكم كنت سعيدا كذلك أن أعرف عن أن المشاركين فيها ينتسبون لكل القارات، وأن أعرف أن هدف الجميع هو إسعاد الإنسان أي إنسان، هو مساعدة ابن آدم أينما كان.

لقد تحاملت على نفسي لأصل إليكم استرشادا بحديث عظيم له حمولة كبرى أجعله دائما نصب عيني: الحديث يقول: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها"
ها أنذا أقوم بغرس النبتة داعيا زملائي في هذا اللقاء الحاشد أن يستمروا في مواصلة البنيان لإسعاد الإنسان.
لقد اكتسبت في هذا اللقاء روحا جديدة نسيت معها أنني أزحف نحو المائة سنة!

عمري بروحي لا بعد سنيـــــــــن * ولأسخرن غدا من التسعين!
عمري إلى التسعين يمضي مسرعا * والروح ثابتة على العشرين!!